ROWAQ MAYSALOON
رواق ميسلون

دراسات سياسية وثقافية
Political and Cultural Studies
مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

أدب السجون

العددان السابع والثامن - تشرين الثاني/ نوفمبر 2022

في هذا العدد

■ حوار العدد؛
شريعة طالقاني
إبراهيم صموئيل
مصطفى خليفة

■ نادية بلكريش؛
الزمن النفسي في الرواية السجنيّة
■ فواز حداد؛
هل للسجن أدب؟

■ علاء الرشيدي؛
المسرح داخل المعتقل
■ شخصية العدد؛
الراحل غسّان الجباعي

رواق ميسلون
ROWAQ MAYSALOON

العددان السابع والثامن
تشرين الثاني/ نوفمبر 2022

التحرير

رئيس التحرير
Editor in Chief
حازم نهار
Hazem Nahar
مدير التحرير
Editorial Manager
نور حريري
Nour Hariri
سكرتير التحرير
Editorial Secretary
وسيم حسان
Wasim Hassan
المحرر الثقافي
Cultural Editor
راتب شعبو
Rateb Shabo
هيئة التحرير
Editorial Board
جَوى العامري
Jawa Alamiri
خلود الزغيّر
Kholoud El-Zughayyar
ريمون المعلولي
Rimon Almaloly
غسان مرتضى
Ghassan Mortada

الهيئة الاستشارية

أيوب أبو دية
Ayoub Abudeah
(الأردن)
Jordan
جاد الكريم الجباعي
Gadalkareem Aljebaei
(سورية)
Syria
حسن نافعة
Hasan Nafaa
(مصر)
Egypt
خالد الدخيل
Khaled Eldakhil
(السعودية)
Saudi Arabia
خطار أبو دياب
Khatar Abu Diab
(لبنان)
Syria
دلال البزري
Dalal Al Bizri
(لبنان)
Lebanon
سعيد ناشيد
Saeed Nashed
(المغرب)
Morocco
سمير التقي
Samir Altaki
(سورية)
Syria
عارف دليلة
Aref Dalila
(سورية)
Syria
عبد الحسين شعبان
Abd Alhusain Shaban
(العراق)
Iraq
عبد الوهاب بدرخان
Abd Alwahab Badrkhan
(لبنان)
Lebanon
كارستين فيلاند
Carsten Wieland
(ألمانيا)
German
كمال عبد اللطيف
Kamal Abdelateef
(المغرب)
Morocco

التدقيق اللغوي
Proofreading
شيري أيهم
Shery Ayham
التصميم والإخراج
Design and Layout
شيرين فوزي
Sherein Fawzy
المشرف التقني
Technical Supervisor
طارق رضوان
Tarek Redowan

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

مؤسسة ثقافية وبحثية مستقلة، غير ربحية، تُعنى بإنتاج ونشر الدراسات والبحوث والكتب التي تتناول القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وتولي اهتمامًا رئيسًا بالترجمة بين اللغات الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، واللغة العربية. وتهدف إلى الإسهام في التنمية الثقافية والتفكير النقدي والاعتناء الجاد بالبحث العلمي والابتكار، وإلى تعميم قيم الحوار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وتسعى لتبادل الثقافة والمعرفة والخبرات، وإقامة شراكات وعلاقات تعاون وثيقة مع المؤسسات والمعاهد والمراكز الثقافية والعلمية، العربية والأوروبية. وتؤمن بأهمية تعليم وتدريب الشباب، والأخذ بيدهم، والارتقاء بهم ومعهم في سلّم الإبداع والإنتاج، وتعمل لتكون خططها التدريبية متوافقة مع المعايير العالمية، بالتعاون مع مجموعة من الخبراء العرب والأوروبيين.

رواق ميسلون

مجلة «رواق ميسلون» للدراسات الفكرية والسياسية؛ مجلة بحثية علمية، فصلية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ولها رقم دولي معياري (ISSN: 2757-8909). وتُعنى بنشر الدراسات ومراجعات الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وللمجلة هيئة تحرير متخصِّصة، وهيئة استشارية تشرف عليها، وتستند المجلة إلى أخلاقيات البحث العلمي، وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، وإلى لائحة داخلية تنظّم عملية التقويم.

تطمح المجلة إلى طرق أبواب فكرية سياسية جديدة، عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا أخرى جديدة، وتولي التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية المختلفة السائدة.

اللوحات في هذا العدد للفنان التشكيلي
السوري نجاح البقاعي

المراسلات باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني:
rowaq@maysaloon.fr

باريس، فرنسا: 0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

ترجمات

صعود أدب السجون
The Rise of Prison Literature

توماس اس. فريمان

ترجمة: فاتن أبو فارس

أدب السجون العربية (للروائية رضوى عاشور)
Arab Prison Literature (Radwa Ashour)

ترجمة: فاتن شمس

أفضل روايات أدب السجون التي أوصى بها ديفيد كوغان

حوار مع ديفيد كوغان

ترجمة: آندي فليمستروم

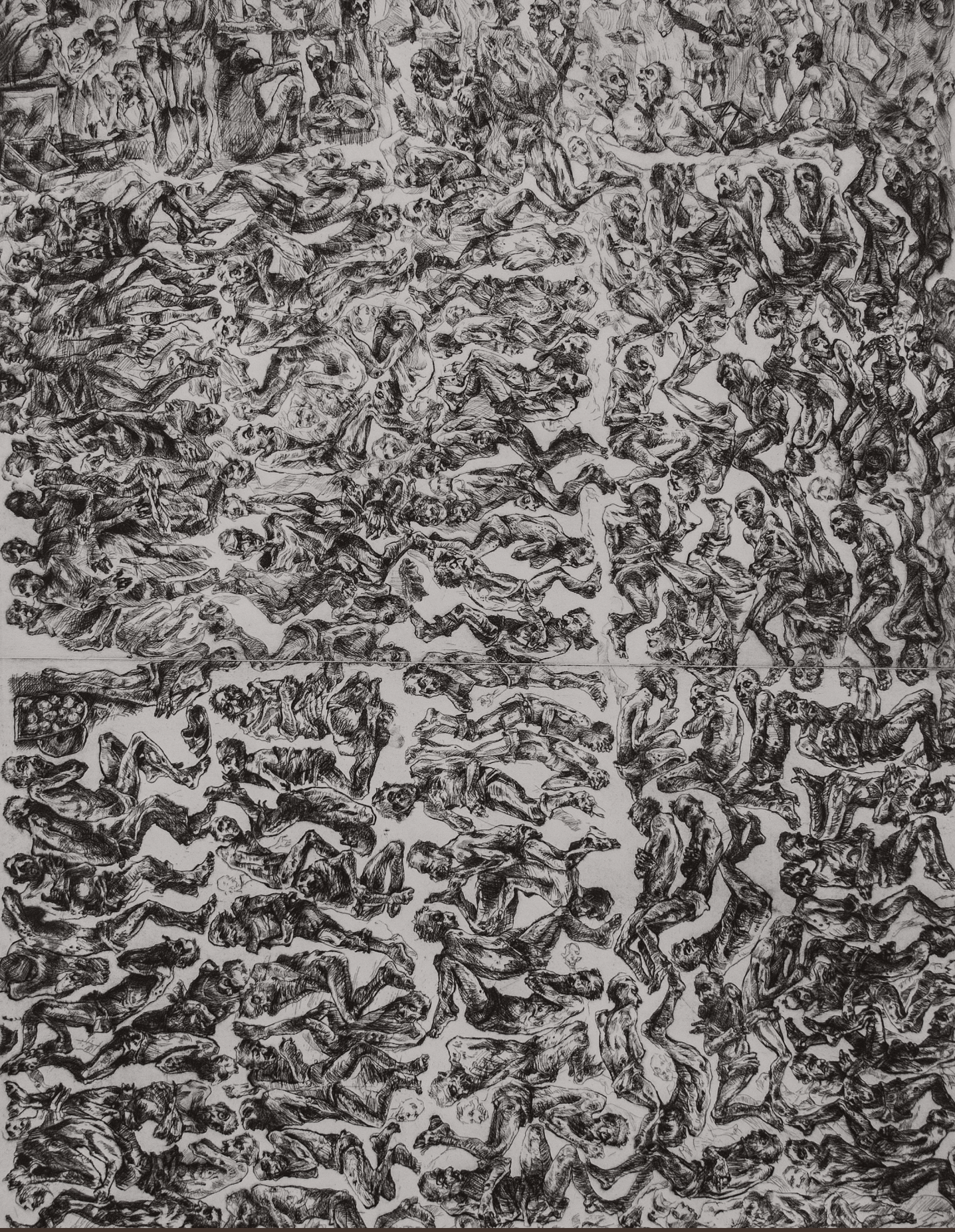

لوحة للفنان السوري نجاح البقاعي

صعود أدب السجون[1]

The Rise of Prison Literature

توماس اس. فريمان[2]

ترجمة: فاتن أبو فارس

فاتن أبو فارس

مترجمة سورية، إجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها - جامعة دمشق 1988، تقيم في تركيا، عملت في عدة مواقع إلكترونية ومنظمات عربية في مجال الترجمة بين اللغتين الإنكليزية والعربية.

خلاصة: أصبحت كتابة أدب السجون نوعًا ثقافيًا مميزًا للفترة الحديثة المبكرة في إنكلترا. استندت شعبيتها إلى زيادة عدد السجناء، وكثيرون منهم من فئة النُخب المتعلمة المسجونين بسبب السياسة أو الدين أو الدَين؛ وازدياد أعداد المتعاطفين السياسيين والدينيين؛ وانتشار الكتب.

على الرغم من الحريات الممنوحة للكتابة، إلّا أن السجن كان مهينًا وضارًا بالسمعة وخطِرًا على الصحة. تبقى العديد من الأسئلة حول أسباب وتأثيرات هذا الشكل من الكتابة؛ ومع ذلك، فمن الضروري فهم الثقافة الحديثة المبكرة، بما في ذلك طبيعة الجريمة والعقاب وتاريخ الإصلاح.

الكلمات المفتاحية: الأهمية التاريخية لكتابة السجون؛ السجين كمذنب؛ الشرف والثقة؛ السجن والإصلاحيات.

مثل الدراما، تعود جذور كتابة أدب السجون في الفترة الحديثة المبكرة عبر العصور الوسطى إلى العالم الكلاسيكي؛ ومثل الدراما أيضًا، جُدِّدَت وأُعيد ابتكارها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لدرجة أنها أصبحت واحدة من أكثر الأصناف الثقافية المميزة في إنكلترا في تلك الفترة. هناك عدة أسباب لظهور أدب السجون. من الواضح أن هناك عددًا مذهلًا حقًا من الكتّاب المعاصرين الأوائل يتبادرون إلى الذهن بسرعة، مثل: توماس مور Thomas More؛ توماس وايت Thomas Wyatt؛ هنري هوارد Henry Howard، إيرل ساري the Earl of Surrey؛ توماس ديكر Thomas

Dekker؛ بـن جونسـون Ben Jonson؛ روبـرت سـاوثويل Robert Southwell؛ جـورج تشـابمان George Chapman؛ وريتشـارد لوفلايـس Richard Lovelace؛ وجميعهـم قضـوا فتـرةً فـي السـجن. ومـع ذلـك، عنـد كتابتهـم عـن السـجن، لـم يكتبـوا فقـط عمـا عرفـوه وتعرضـوا لـه، لكـن أيضًـا عمـا يثيـر اهتمـام رعاتهـم وجماهيرهـم. لأول مـرة فـي التاريـخ الإنكليـزي، جـرى التفكيـر بجديـة فـي الغايـات الاجتماعيـة للسـجن، وبُنـيَ نـوع جديـد مـن السـجون لإصـلاح السـجين، وهـو الإصلاحيـة. وإضافـةً إلـى مشـاهدة التغيـرات فـي السـجون نفسـها، شـهد العصـر الحديـث المبكـر إحيـاء مـا أصبـح صنفًـا مـن أصنـاف الكتابـة الرئيسـة فـي السـجن: خطابـات السـجون التـي كانـت خاملـةً منـذ أيـام الكنيسـة المسـيحية الأولـى.

كمـا ظهـرت أصنـاف أخـرى مـن الكتابـة فـي السـجون مـن دون أي مقدمـات تقريبًـا -بمـا فـي ذلـك حكايـة المتكلـم،[3] أي سـرد الـراوي لمحاكمـة سـجين واسـتجوابه- فـي القـرن السـادس عشـر[4].

كمـا زاد كـمّ كتابـات السـجون وأنواعهـا بشـكل كبيـر فـي القرنيـن السـادس عشـر والسـابع عشـر. فـي حيـن اسـتُخدم السـجن كعقوبـة قانونيـة طـوال العصـور الوسـطى، ارتفـع عـدد السـجناء بشـكل كبيـر فـي القـرن السـادس عشـر، حيـث أصبـح السـجن عقوبـة مقـررة لعـدد متزايـد مـن الجرائـم[5].

عـلاوة علـى ذلـك، ظهـرت أنـواع أو فئـات جديـدة مـن السـجناء فـي إنكلتـرا الحديثـة المبكـرة. مـلأت الجـدالات حـول حركـة الإصـلاح السـجونَ بالمذنبيـن الدينييـن، وفـي القـرن السـابع عشـر، أدت الحـرب الأهليـة نفسـها والتـي أجّجتهـا الصراعـات الدينيـة إلـى حـد كبيـر، إلـى خلـق عـدد أكبـر مـن السـجناء، كمـا يذكّرنـا جـيروم دي جـروت Jerome de Groot. وبينمـا كان الفقـراء مـن ضمنهـم دائمًـا، ذلـك عندمـا انتبـه الإنكليـز بشـكل مفاجـئ فـي القـرن السـادس عشـر إلـى الارتفـاع الملحـوظ فـي أعـداد المتشـردين، فسـنّوا قوانيـن جديـدة تقضـي بحبسـهم[6]. كذلـك كان يُسـجن المَدينـون فـي إنكلتـرا فـي العصـور الوسـطى، إلا أنه ارتفعـت أعدادهـم فـي إنكلتـرا الحديثـة المبكـرة، حيـث لـم يصبـح التسـليف متاحًـا بسـهولة فحسـب، بـل أصبـح أيضًـا جـزءًا لا يتجـزأ مـن التجـارة. وزيـادة الاعتمـاد علـى التسـليف يسـتلزم حتمًـا زيـادة الديـون، وعلـى الرغـم مـن أن عـدد الأشـخاص المسـجونين بالفعـل بسـبب الديـون كانـوا نسـبة صغيـرة مـن أولئـك الذيـن تعرضـوا لإجـراءات قانونيـة مـن طـرف دائنيهـم، فكانـت النتيجـة أن شـهد القـرن السـادس عشـر ارتفاعًـا كبيـرًا فـي عـدد المَدينيـن المسـجونين[7].

---

(3) حكايـة المتكلـم نمـط مـن روايـة القصـص يسـرد الـراوي فيهـا الحـوادث مـن وجهـة نظـره مسـتعملاً ضميـر المتكلـم المفـرد أو الجمـع. (المترجمـة).

(4) There were three such narratives from the fifteenth century: the examinations of the Lollards Sir John Oldcastle, William Thorpe, and Richard Wyche; see Anne Hudson, The Premature Reforma- tion: Wycliffite Texts and Lollard History (Oxford, 1980), 220–22. The account of Oldcastle's trial was compiled by the authorities and distributed in an attempt to discredit him. The other two works were, however, harbingers of a flood of such works in the next two centuries. Martyrologists and the Female Supporters of the Marian Martyrs," Journal of British Studies 39 (2000): 8–33.

(5) On imprisonment being used punitively in medieval England, see R. B. Pugh, Imprisonment in Medieval England (Cambridge, 1968); J. G. Bellamy, Crime and Public Order in the Later Middle Ages (London, 1973), 162–66; and Seán McConville, 1750–1877, vol. 1, A History of English Prison Adminis- tration (London, 1981), 3–4. On the growth of imprisonment as a legal penalty under the Tudors, see K. J. Kessselring, Mercy and Authority in the Tudor State (Cambridge, 2003), 27–31.

(6) A. L. Beier, "Vagrants and the Social Order," Past and Present 64 (1974): 3–29.

(7) Craig Muldrew, The Economy of Obligation: The Culture of Credit and Social Relations in Early Modern

ساهمت مجموعتان من هذه المجموعات، وهما المذنبون الدينيون والمدينون، بشكل ملحوظ في تصاعد كتابات السجون في إنكلترا الحديثة المبكرة. كان أعضاء هذه المجموعات، على عكس عامة السكان، متعلّمين بوجه عام، وكان لديهم دافع قوي للكتابة، وإن كان لأسباب مختلفة. كان المذنبون الدينيون يرغبون في كسب التعاطف وحتى اعتناقًا لقضيتهم، وكانوا في حاجة أيضًا إلى تشجيع وتوحيد مؤيديهم في الخارج. بينما كانت آمال المدينين الوحيدة للإفراج عنهم، هي الحصول على إعفاء من دائنيهم أو على موارد مالية بديلة، وكلا الهدفين لا يمكن تحقيقهما في كثير من الأحيان إلا من خلال العرائض والخطابات. أكد العديد من المساهمين في هذا الكتاب بشكل صحيح، على الاستمرارية بين كتابة السجون الحديثة المبكرة وتلك التي سبقتها؛ الكلاسيكية، المتعلقة بالباباوات، والوسطى. من حيث الموضوعات والاستعارات والإطار المفاهيمي، صحيح أن الكتابات السابقة كانت مؤثّرة، لكن لا ينبغي لهذا أن يحجب التغييرات الاجتماعية التي غيرت كتابة السجون وأعطتها بروزًا أكبر (وضّحت الرؤية في ما يخصها) في الثقافة المعاصرة. على سبيل المثال، كانت لبعض التغييرات أثر مزلزل (لها تأثيرات كبيرة)، كتطور الطباعة وتجارة الكتب وكذلك ظهور التعليم، ما وسّع نطاق وانتشار كتابات السجون، وأعاد تنظيم العلاقات الاجتماعية في جميع أنحاء أوروبا.

كانت التغييرات الأخرى أكثر محلية -خاصة في إنكلترا- وأيضًا أكثر عرضية. على سبيل المثال، بينما كان الانقسام الديني متفشيًا في أوروبا القرن السادس عشر، خلقت الأوضاع في إنكلترا حصادًا وفيرًا بشكل خاص من كتابات السجون. ضمنت التحولات المتواترة في الولاء الديني للملوك وجود أعداد كبيرة من المذنبين الدينيين، ما حفز كل مجموعة دينية رئيسة في المملكة لإنتاج مجموعة من كتابات السجون خاصة بها. إن عدم قدرة السلطات الإنكليزية على قمع المعارضة الدينية تمامًا، خلافًا للعديد من نظرائهم في القارة (الأوروبيين)، كفل صمود واستمرار هذه الانقسامات الدينية، بحيث كانت هناك أجيال جديدة من مؤلفي السجون طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

لم تلهم هذه الصراعات الدينية والسياسية المستمرة والسائدة السجناء الأفراد للكتابة فحسب، بل وحفزتهم أيضًا عليها، ولكنها عنت أيضًا وجود جماهير جاهزة من القرّاء المتشابهين في التفكير، ومن ثمّ جماهير جديدة لكتابات السجون بشكل عام. (من الجدير بالملاحظة أن ما يمكن عدّه أول مجموعة من كتابات السجن باللغة الإنكليزية: خطابات هنري بول Henry Bull المؤكدة الأكثر إلهية ونفعًا وراحة لمثل هؤلاء القديسين الحقيقيين وشهداء الله المقدسين، وهي عبارة عن مجموعة من رسائل البروتستانت المسجونين في عهد ماري، كانت نتاج الانقسام الطائفي)[8]. غالبًا ما كان السجناء الدينيون والسياسيون في إنكلترا الحديثة المبكرة يتمتعون بدعم منظّم، وكان المتعاطفون معهم يُهرّبون كتاباتهم من السجن وينشرونها مطبوعةً أو مخطوطة باليد، أو كليهما. علاوة على ذلك، كانت المنظمات في حاجة إلى الدعم وتقديمه، وغالبًا ما يُدفَع أولئك المسجونين لأسباب سياسية أو دينية -ليس أقلها مؤيدوهم والمتعاطفون معهم- للكتابة سياسيًا أو جدليًا أو رعويًا من السجن. بحلول الوقت الذي خط فيه بنيان Bunyan بالقلم على الورق في سجن بيدفورد Bedford،

England (Basingstoke, U.K., 1998), 173–95 and 272–303, esp. 286–90. Also see William Sherman's essay in this volume.

(8) On Henry Bull's collection, see Susan Wabuda, "Henry Bull, Miles Coverdale, and the Making of Foxe's Book of Martyrs," in Martyrs and Martyrologies, ed. Diana Wood, Studies in Church History 30 (Oxford, 1993), 245–58.

كان عالم السجين، ولا سيما سجين الرأي، مختلفًا تمامًا عن عالم بوثيوس Boethius.

ومع ذلك، فمن أحد الجوانب على الأقل، كان عالم بنيان Bunyan أقرب إلى عالم بوثيوس Boethius منه إلى عالم القرن الحادي والعشرين. كانت نظرة المجتمع إلى السجناء في إنكلترا الحديثة المبكرة مختلفة تمامًا عن نظرته إليهم في العالم الناطق باللغة الإنكليزية اليوم. هناك اعتقاد عالمي حديث، وإن كان نادرًا ما يُناقَش، وهو أن أولئك المسجونين مختلفون من نواحٍ رئيسة عن أعضاء المجتمع «الطبيعي». على الرغم من أن الأسباب المتقدمة لهذه الاختلافات، أو ربما بشكل أكثر دقة، أوجه القصور، تختلف اختلافًا شديدًا -مثل العيوب في الشخصية، ونقص التعليم أو التدريب، والعيوب الجينية وقد طُرِحَت جميعًا في وقت أو آخر- فكرة أن السجناء معطوبين ومختلّين منتشرة في كل مكان. وهي مضمنة في قانون العقوبات بمصطلحات مثل «إعادة التأهيل» و«المؤسسات الإصلاحية» و«الإصلاح». (من المسلّم به أن السجناء السياسيين لا يتم تصنيفهم دائمًا بهذه الطريقة، على الرغم من أن الفرق بين السجين السياسي والمجرم الجنائي غالبًا ما يكون حكمًا ذاتيًا. وعلاوةً على ذلك، فإن الأنظمة التي تسجن السجناء السياسيين غالبًا ما تعاملهم على أنهم مختلون؛ فاحتجاز الاتحاد السوفياتي للمنشقين في مستشفيات الأمراض العقلية مثال مثير للاهتمام على هذا الاتجاه.) كانت مثل هذه المفاهيم غريبة إلى حد كبير بالنسبة إلى إنكلترا الحديثة المبكرة (على الرغم من صوغ مصطلح «بيت الإصلاح» في القرن السادس عشر)، حيث كان الافتراض أن أي شخص يمكن أن يكون سجينًا.

سيُذكَر أحد الأسباب المحددة لهذا الافتراض مرات عديدة في هذه المجموعة: من المفارقات، في حين أن أعضاء النخبة الاجتماعية، في المجتمعات الديمقراطية الحديثة، مسجونون بنسبة أقل بكثير من الأفراد ذوي المكانة الاجتماعية الأدنى، في إنكلترا الحديثة المبكرة الملكية. تعرّض رجال الحاشية والأرستقراطيون والأساقفة وحتى أفراد العائلة المالكة للسجن، بشكل مستمر. وكما لاحظ توماس ديكر Thomas Dekker، من واقع تجربته: «يُجبَر الرجال من جميع الفئات على دخول السجن، كما تصبّ جميع أنواع الأنهار في البحر»[9]. والأمر الأكثر أهمية، هو التحول الهائل في المواقف تجاه السجناء الذي حدث في الفترة الحديثة المبكرة. خلال العصور الوسطى وما بعدها، كان يُنظر إلى الجريمة إلى حد كبير على أنها مظهر من مظاهر الخطيئة، ومن ثمّ على أنها جريمة بحق الله في المقام الأول. يتجسد هذا النموذج في العديد من روايات الجريمة الحديثة المبكرة حيث يُكشَف عن المجرم خلال الوسائل المعجزة مثل آثار دماء واضحة أو جثث تنزف فجأة في وجود القاتل. في هذه الروايات، الله هو المنتقم من التجاوزات ضد نظامه الأخلاقي. يوكّد مالكولم جاسكيل Malcolm Gaskill أن هذه الحكايات طمأنت الناس في فترة كانت فيها منهجية حل الجرائم بدائيةً، وكانت آلية مقاضاتها غير موكّدة. يزعم جاسكيل أيضًا أن نشر روايات العناية الإلهية هذه، تراجع في أواخر القرن السابع عشر مع تحسن أساليب التحقيق، ما قلل من توقع أن الشفاعة الإلهية كانت مطلوبة لحل الجريمة والمعاقبة عليها[10]. أود أن أقترح أيضًا أن الانخفاض في مثل هذه الروايات يعكس تراجع الرأي القائل إن الجريمة كانت جريمةً بحق الله: وبشكل متزايد، كان يُنظر إليها على

(9) Thomas Dekker, Villanies Discovered by Lanthorne and Candle-Light (London, 1616), sig. K3v

(10) Malcolm Gaskill, Crime and Mentalities in Early Modern England (Cambridge, 2000), 206–26. Also see Alexandra Walsham, Providence in Early Modern England (Oxford, 1999), 88–89 and 112–14.

أنهـا جريمـة بحـق المجتمـع[11].

كان لصعـود هـذه المفاهيـم وانحسـارها تداعيـات هائلـة علـى الطرائـق التـي يُنظـر بهـا إلـى أولئـك الذيـن يخالفـون القانـون ويُعاملـون بهـا. عندمـا كان يُنظـر إلـى الجريمـة علـى أنهـا تعـدٍ علـى النظـام الإلهـي، كان يُنظـر إلـى المجـرم عـادةً علـى أنـه خاطـئ، لا يختلـف بطبيعتـه عـن أعضـاء المجتمـع الآخريـن، لأن جميـع البشـر (خطائيـن). فـي هـذا النمـوذج، كانـت الغايـة الأسـاس للعقـاب دعـوة الخاطـئ إلـى طريـق التوبـة، وبذلـك، تقديـم مثـال مبنـي علـى أعمـال الخطيئـة والنـدم والفضيلـة[12]. أدى اسـتخدام المجـرم كتحذيـر للآخريـن إلـى تقليـل المسـافة الأخلاقيـة بيـن المجـرم والمجتمـع، حيـث كان يمثـل الإغـراءات التـي يمكـن لأي شـخص أن يخضـع لهـا، ونقـاط الضعـف الأخلاقيـة التـي يمكـن أن يستسـلم لهـا. عـلاوة علـى ذلـك، قـدم هـذا المفهـوم نموذجًـا يـرى السـجناء مـن خلالـه أنهـم يُحبَسـون بمحاكمـة دينيـة أمـر بهـا اللـه لتطهيـر أرواحهـم.

ومـع ذلـك، عندمـا أصبـح يُنظـر إلـى الجريمـة علـى أنهـا إهانـة موجّهـة إلـى النظـام الاجتماعـي، كان يُنظـر إلـى المجـرم علـى أنـه خـارج المجتمـع ومختلـف بطبيعتـه عـن أعضائـه الآخريـن. فـي هـذا النمـوذج، الهـدف الأسـاس للعقـاب هـو القضـاء أو علـى الأقـل إضعـاف أسـباب هـذه الاختلافـات، سـواء مـن خـلال الـردع، أو إعـادة التأهيـل، أو التعليـم الأخلاقـي، أو التعليـم والتدريـب، أو مجـرد الاحتجـاز الوقائـي. والنتيجـة الطبيعيـة غيـر المقصـودة، ولكـن الواقعيـة جـدًا، لهـذا النمـوذج هـي أنـه يُنظـر إلـى السـجين علـى أنـه مختلـف عـن أعضـاء المجتمـع «الطبيعييـن» وأدنـى منزلـة منهـم، ومـن ثـمّ فـإن تجربـة الحبـس تحمـل وصمـة عـار قويـة.

بطبيعـة الحـال، فـإن تصـورًا معينًـا للجريمـة والسـجناء لـم يفسـح المجـال فجـأةً لتصـور آخـر. لقـد اسـتمر تصـور المجـرم علـى أنـه خاطـئ ومخالـف لتعاليـم اللـه، ويجـب توجيهـه، إن أمكـن، إلـى الفضيلـة، لعـدة قـرون[13]. فـي الواقـع، لا يـزال مـن الممكـن العثـور علـى هـذا التصـور اليـوم، علـى سـبيل المثـال، فـي كتـاب الأخـت هيلـين بريجيـان Helen Prejean بعنـوان الميـت الـذي يمشـي Dead Man Walking والفيلـم الشـهير المبنـي عليـه. وتوضيحـات مهمـة للرؤيـة «الحديثـة» للجريمـة، كجريمـة اجتماعيـة ظهـرت فـي منتصـف القـرن السـادس عشـر، مـع إنشـاء «بيـوت الإصـلاح». تغيـرت المواقـف تجـاه الفقـراء فـي أعقـاب الإصـلاح الإنكليـزي، حيـث ارتبـط الفقـر بالفشـل الأخلاقـي وعـدَّ الفقـراء تهديـدًا للنظـام الاجتماعـي[14]. وقـد وفـر هـذا بـدوره الأسـاس للتصـور الـذي نشـأ فـي القـرن السـادس عشـر، وهيمَـن بحلـول منتصـف

(11) The development of these opposing ideas regarding sin and crime are trenchantly presented in J. Sears McGee, The Godly Man in Stuart England: Anglicans, Puritans, and the Two Tables (New Haven, Conn., 1976), esp. 68–113.

(12) These goals are elucidated in Peter Lake's seminal articles on scaffold speeches and murder pamphlets: "Puritanism, Arminianism, and a Shropshire Axe Murder," Midlands History 15 (1990): 37–64; "Popular Form, Puritan Content? Two Appropriations of the Murder Pamphlet for MidSeventeenth Century London" in Religion, Culture, and Society in Early Modern Britain, ed. Anthony Fletcher and Peter Roberts (Cambridge, 1994), 313–34; and "Deeds Against Nature: Cheap Print, Protestantism, and Murder in Early Seventeenth-Century England," in Culture and Politics in Early Stuart England, ed. Kevin Sharpe and Peter Lake (London, 1994), 257–83.

(13) For discussion and examples of this, see Andrea McKenzie, Tyburn's Martyrs: Execution in England, 1675–1775 (London, 2007), 55–92.

(14) Margo Todd, Christian Humanism and the Social Order (Cambridge, 1987), 118–47.

القرن الثامن عشر، وما زال معنا حتى اليوم، أن الفقراء هم من تسببوا في الجريمة بشكل كبير[15] إذا كان الفقر ناتجًا عن عيوب في الشخصية، وإذا كان الفقراء يشكلون تهديدًا للمجتمع، فقد اقتضت الضرورة الاجتماعية توفير أماكن حيث يمكن أن يستخلص الفقراء (خاصة المتشردين، وكذلك أيضًا أولئك الذين كانوا ثائرين أو متمردين) فيها دروسًا من طرائقهم الشريرة، وتدريبهم ليكونوا أعضاء مجتمع منتجين.

يبدو أن هذا على الأقل كان الفكر وراء إنشاء بيوت الإصلاح. أُنشِئ أول بيت للإصلاح، في موقع قصر بريدويل Bridewell المهجور في لندن (والذي أصبح في ما بعد اسمًا بديلًا لجميع دور الإصلاح)، في عام 1553. دور الإصلاح التي أُطلق عليها اسم Bridewells، والتي استبقت في بعض النواحي السجون الحديثة، كانت متميزةً عن غيرها من السجون الحديثة المبكرة من حيث أنها كانت -من الناحية النظرية- أماكن للتدريب المهني والانضباط الصارم، كما أنها كانت مخصصة للسجناء من أدنى مستويات المجتمع. بيد أنه، على عكس السجون الحديثة، لم يكن السجناء في الدور الإصلاحية مذنبين بالضرورة بارتكاب جريمة معينة، ولم يكونوا، على الأقل في الأصل، محكوم عليهم لفترات محددة[16]أثبتت الفكرة شعبيتها، وتمتعت دور الإصلاح بنمو سريع خلال حكم أسرة تيودور Tudor وفترة مبكرة من حكم أسرة ستيوارت Stuart[17]. لكن، مع مرور الوقت، فقدت الدور الإصلاحية طابعها المميز واستُخدمت لإيواء مجموعة منوعة من الجناة، بما في ذلك الفارين من الجندية وأسرى الحرب والكهنة الكاثوليك. وأصبح من المتعذر تمييزها عن السجون العادية، وفي الواقع، غالبًا ما كانت تُستَخدَم كسجون بديلة[18].

تظل الدور الإصلاحية فصلًا انتقاليًا في التاريخ الاجتماعي، حيث يُنظر إلى الجريمة من منظور علماني إلى حد كبير، ويتصرف المجتمع نفسه لتصويب المجرمين. ومع ذلك، فإن الأفراد المعاصرين الأوائل، في الغالب، قبلوا نموذج المجرم بوصفه آثمًا ضد النظام الإلهي. هذا يجعل كل من السجن الإنكليزي الحديث المبكر والسجين غريبين عنا، حيث يُنظر إلى الأول على أنه مكان للتكفير عن الخطايا، بينما يُنظر إلى الأخير على أنه مخالف لقوانين الله، وفي هذا الشأن، لا يختلف بالأساس عن بقية الجنس البشري.

***

سيكون من الخطأ، مع ذلك، افتراض أن تجربة السجن الحديث المبكر كانت خالية من العار أو الخزي. وكما يلاحظ جيروم دي جروت Jerome de Groot، فإن الأدبيات الحديثة المبكرة صوّرت السجون على أنها مواقع للفساد والشر، وصورت السجناء بشكل عام على أنهم مجانين وسيئون

(15) J. A. Sharpe, Crime in Early Modern England, 1550–1750, 2nd ed. (London, 1999), 251–52.

(16) On the creation and development of bridewells see McConville, English Prison Administration, 22–38; A. L. Beier, Masterless Men: The Vagrancy Problem in England, 1560–1640 (London, 1985), 164–69; and Joanna Innes, "Prisons for the Poor: English Bridewells, 1555–1580," in Labour, Law, and Crime: An Historical Perspective (London, 1987), 42–92.

(17) "At least a quarter of English counties had their own bridewells (some more than one) by the end of the sixteenth century; by 1630 a network of bridewells covered the whole of England"; Innes, "Prisons for the Poor," 62. Also see McConville, English Prison Administration, 38–42.

(18) Sharpe, Crime in Early Modern England, 259–60

وخطِرون والأجدر عدم معرفتهم. أدى السجن إلى سمعة سيئة كانت، في أحسن الأحوال، علامةً على الفشل. من المسلّم به أن السجناء يمكنهم المطالبة -وقد طالبوا فعلًا- بسلطة روحية بحكم اعتقالهم. صفحة العنوان لسجين ضد الأسقف The Prisoner Against the Prelate لـ توماس غرانثام Thomas Grantham، مع تصويرها لغرانثام في السجن، مواجهًا ومعارضًا الأسقف الذي سجنه في كاتدرائيته، تقدم بشكل صارخ ادّعاء رجل مسجون بالتفوق الأخلاقي بحكم سجنه (انظر الشكل 1). ومع ذلك، فإن الإذلال الذي رافق السجن كان جزءًا لا يتجزأ من هذه السلطة الروحية التي تقوم على قلب القيم العلمانية. الأخير كان الأول والضعفاء يربكون الأقوياء؛ كان ذلك بسبب أن السجناء كانوا بائسين وأشقياء، ولأنهم عانوا من الإذلال من أجل الصلاح، فيمكنهم أن يطالبوا بالسلطة الروحية.

ومع ذلك، لم يرغب الكثير من السجناء في المطالبة بمكانة الشهيد في سبيل الله. بالنسبة إلى النخب الإنكليزية على وجه الخصوص، كانت خدمة التاج عملهم الرئيس وسبب وجودهم. إذا جاء الشرف والمكانة من خدمة الملك، فإنّ الخزي والعار يسيران جنبًا إلى جنب مع الازدراء الملكي الذي كان السجن مؤشرًا جليًا له. لم يشارك حكم عائلتي تيودور وستيوارت في إنكلترا في إضفاء الطابع الرومانسي الحديث على المتمردين وأولئك الذين يتحدون السلطة، حيث كان يُعدّ أن النظام الاجتماعي معترف به إلهيًا. حتى الشهداء الدينيين والسياسيين الذين استحوذ عليهم إيمان راسخ بأنهم يعانون من أجل قضية أسمى، كانوا لا يزالون في كثير من الأحيان قلقين من شبح عدم ولائهم للتاج.

لذا، كان احتمال أن يؤدي السجن إلى تقويض سمعة الشخص مصدر قلق كبير للسجين، لأنه، إلى درجة غير معروفة اليوم، كانت إنكلترا الحديثة المبكرة مجتمعًا يدور حول مفهوم الشرف الفردي،[19] وكان هذا مصدر قلق خاص لأولئك الذين في قمة الهرم الاجتماعي، كما يلاحظ مالكولم سموتس Malcolm Smuts: في حين أن الشرف مهم على جميع مستويات المجتمع، إلا أنه كان مهمًا بشكل

خاص للطبقة العليا والنبلاء[20]. ويمكن ملاحظة ذلك في الحساسية غير العادية للطبقات الحاكمة الحديثة الأولى حيال السخرية وحماستهم في التصدي للقذف والتشهير المتصورين[21]. كما توضح العديد من المقالات في هذه المجموعة، قد يكون سجن النخب الحديثة المبكرة، وفقًا لمعاييرنا، مريحًا بشكل مدهش من بعض النواحي. لكن التدمير المحتمل للسمعة والمتأصل في أي سجن لا بد أن يكون قد خلق ضيقًا نفسيًا بما يكفي لإرضاء الجميع باستثناء أسوأ أعدائهم. بعد كل شيء، لا يتوافق نموذج الخاطئ التائب بشكل خاص مع كبرياء الطبقة العليا، والنظر إلى السجين نظرةَ أنّ كل إنسان يخضع أحيانًا للخطيئة والإغراء، يتعارض بشكل مباشر مع الشعور الأرستقراطي بهوية النخبة.

علاوة على ذلك، في حين كان الشرف مصدر قلق خاص للطبقات العليا، إلا أنه لم يكن مصدر قلق لهم وحدهم. فكانت النساء والأفراد من «النوع المتوسط» أو الطبقة الوسطى عرضةً للخطر أيضًا. بالنسبة إلى المرأة العصرية المبكرة من أي مكانة، كان الحفاظ على سمعة التواضع والطاعة أمرًا رئيسًا، لأن هذه السمعة عززت بشكل كبير فرصها في الزواج أو الزواج مرةً أخرى، ومن ثمّ تعزيز فرصها في التقدم الاقتصادي والاجتماعي[22]. وغني عن القول، أن قضاء فترة في السجن يمكن أن يقضي على سمعة المرأة سواء من حيث العفة أو الطاعة. تشمل المجموعة الضعيفة الأخرى أولئك الذين يعتمد بقاؤهم الاقتصادي على القدرة على الحصول على الائتمان، مثل الحرفيين والتجار وحتى أصحاب المنازل. بالنسبة إلى هؤلاء الأفراد، كانت الجدارة الائتمانية دالة على صفاتهم الأخلاقية وكذلك قيمتها الاقتصادية. يجب أن يتمتع المقترض بسمعة طيبة في الصدق والرصانة والجدارة بالثقة، وكل هذا يمكن أن يتحطم إلى غير رجعة عن طريق السجن، بما في ذلك بالطبع السجن بسبب الديون[23].

بصرف النظر عن فضيحة الحبس، فإن السجن نفسه ينطوي على المزيد من الإذلال والإهانة، لسبب واحد، أنه كان يعني الخضوع لأهواء وأمزجة السجانين. حتى لو قام السجينون برشوة السجانين (كما كانت الحال دائمًا تقريبًا ما لم يكن السجين معدمًا تمامًا)، فإن قوتهم لا تزال واقعًا يوميًا معتادًا، وبالنسبة إلى الأفراد ذوي التعليم العالي والمكانة الاجتماعية، لا بد أن هذا كان مثيرًا للحنق. ناهيك عن المصاعب الأشد قسوة التي يتعرض لها السجين مثل القيود والتعذيب. ولكن الأهم من ذلك كله، كانت حالة تلاشي احترام الذات شائعةً لدى السجناء في كل مكان وزمان، الذين أصبحوا فجأة عاجزين عن مساعدة وحماية العائلة والأصدقاء.

(20) Smuts, Culture and Power, 8.

(21) See Pauline Croft, "The Reputation of Robert Cecil: Libels, Political Opinion and Popular Awareness in the Early Seventeenth Century," Transactions of the Royal Historical Society, 6th ser., 1 (1991): 43–69; and A. J. Fletcher, "Honor, Reputation, and Local Officeholding in Elizabethan and Stuart England," in Order and Disorder in Early Modern England, ed. Anthony Fletcher and John Stevenson (Cambridge, 1985), 92–115. On the efforts of elites to rebut or suppress attacks on their honor,see Adam Fox, "Ballads, Libels, and Popular Ridicule in Jacobean England," Past and Present145(1994): 47–83. On the huge volume of defamation cases in early modern courts, see Martin Ingram,Church Courts, Sex, and Marriage in England, 1570–1640 (Cambridge, 1987), and J. A.Sharpe, Defamation and Sexual Slander, Borthwick Papers 5 (York, U.K., 1980).

(22) Laura Gowing, Domestic Dangers: Women, Words, and Sex in Early Modern London (Oxford, 1996), 111–79

(23) Muldrew, Economy of Obligation, 148–54 and 272–308. Also see Susan Amussen, "'The part of a Christian man': The Cultural Politics of Manhood in Early Modern England," in Political Culture and Cultural Politics in Early Modern England, ed. Susan Amussen and Mark A. Kishlansky (Manchester, U.K., 1993), 225–26.

***

من الواضح أنه كان ضروريًا أن يتم تهريب الأعمال المكتوبة نظرًا لوجود كتابات السجن. لحسن الحظ، في إنكلترا الحديثة المبكرة كان هذا الأمر جيدًا وضمن حيّز الإمكان. في الواقع، تصور كل مقالة تقريبًا في هذه المجموعة نقل كتابات السجن إلى الخارج على أنها مسألة سهلة نسبية، وتصف جدران سجن تيودور وستيوارت بأنها مسامية وقابلة للاختراق، وكان السبب الرئيس هو أن جميع العاملين في السجن تقريبًا، من الحكّام إلى السجّانين، اشتروا مناصبهم، وكانوا يتوقعون استرداد استثماراتهم، ليس من الرواتب ولكن من السجناء المحتجزين لديهم. كانت هناك مساوئ واضحة في هذا النظام، ولكن من وجهة نظر الحكومة كانت له ميزة أساس: فقد سمح للسلطات الحفاظ على شبكة واسعة من السجون بأقل تكلفة. ومع ذلك، قوض هذا النظام أمن السجون بطريقتين حاسمتين.

الأولى، أن الدفعات التي يدفعها السجناء للسجانين كانت مدمجة في النظام، ما أدى إلى إمكان إدخال أي شيء تقريبًا إلى السجن من أولئك الذين لديهم أموال كافية. عندما توفي ستيفن فالينجر Stephen Vallenger، المسجون في سجن فليت Fleet لاضطلاعه بدور في طباعة الأدب الكاثوليكي، كان من ضمن قائمة جرد ممتلكاته، من بين أشياء أخرى، سرير من الريش، ملاعق فضية وقصديرية، ونقود، مجوهرات، ومكتبة تضم 101 كتابًا[24].

قام فرانسيس تريغيان Francis Tregian، سجين كاثوليكي آخر، بتجميع مكتبة من مئات الكتب خلال فترة سجنه الطويلة في سجن فليت Fleet[25]. إذا دخلت الكتب والمجوهرات والأطباق الفضية وغيرها من الرفاهيات إلى السجن، فيمكن لكتابات السجناء أن تخرج منه.

كما تعرض الأمن للمساومة بسبب وجود الخدم في السجن. كان لدى أي شخص من ذوي المكانة المتوسطة على الأقل في إنكلترا الحديثة المبكرة خدم، وعندما سُجن السادة والسيدات، كانوا عادةً يأخذون معهم بعض خدمهم. اشتكى ستيفن جاردينر Stephen Gardiner، أسقف وينشستر Winchester في أثناء سجنه في سجن فليت Fleet عام 1547، من أنه لم يُسمح له إلا بطباخ وخادمَين للسهر على راحته، وأنه حُرم من قسيس أو حلاق أو خياط أو طبيب. في وقت لاحق، خلال حبس الأسقف في السجن الصارم في سجن البرج Tower، لم يُسمح له حتى بالسير في الحدائق؛ ومع ذلك، فقد سُمح له بخادمين لم يُسمح لهما، على نحو غير عادي، بمغادرة تخوم السجن[26]. في عام 1555، صُدم حتى أعضاء مجلس القضاء الخاص عندما علموا أن سجينًا في Fleet، استخدم حاشية من المنشدين هناك للترفيه عنه[27]. تسامح السجانون مع هؤلاء الخدم والموظفين لأنهم خلقوا المزيد من فرص الربح لهم -دفع أرباب عملهم أجور غرفهم ووجباتهم- لكن قدرتهم على العمل كوسطاء بين السجناء والعالم الخارجي، زاد من صعوبة تقييد انتشار الأعمال المكتوبة في

(24) Anthony Petti, "Stephen Vallenger (1541–1591)," Recusant History 6 (1962): 257.

(25) The Oeconomy of the Fleete, ed. Augustus Jessop, Camden Society, n.s., 25 (London, 1879), xiii. For other examples of early modern prisoners amassing large libraries, see Molly Murray's essay in this volume.

(26) J. A. Muller, Stephen Gardiner and the Tudor Reaction (New York, 1926), 169 and 183.

(27) Acts of the Privy Council of England, ed. J. R. Dasent, 9 vols. (London, 1890–1900), 5:135.

السجن[28].

ومن النتائج الأخرى لشراء مكاتب السجون أنه كان من الصعب جدًا فصل السجانين أو المديرين. كان يدير السجون أشخاص قد يكونون متعاطفين بشكل خطِر مع فئات معينة من السجناء، ولم يكن في إمكان الحكومة فعل الكثير حيال ذلك. في عهد ماري، كان السجنان الرئيسان اللذان يُحتجز فيهما الزنادقة (المهرطقين) المشتَبه فيهم، وهما بنش الملك King's Bench والمارشالسي Marshalsea، يحكمهما البروتستانت المخلصون الذين سمحوا لإخوانهم في الدين المسجونين بحرية كبيرة. واجهت حكومة إليزابيث المشكلة نفسها بشكل عكسي، حيث كان عدد من حراس السجون ومديريها متعاطفين بشكل علني مع سجنائهم الكاثوليك[29].

تقدّم سيرة توماس فيليبس Thomas Phillips المهنية مؤشرًا صارخًا على المشكلات التي يمكن أن يثيرها السجان الفاسد أخلاقيًا. كان فيليبس Phillips مصمّم مطبوعات اعتقله توماس مور Thomas More للاشتباه في أنه مهرطق في عام 1529. أُرسِلَ إلى سجن البرج، وبقي هناك لسنوات في حالة من المتاهة القانونية، حيث لم يُتَّهَم ولم يُفرَج عنه. في النهاية، أصبح نوعًا ما حارسًا مرؤوسًا مشابهًا إلى حد ما للوصي، ومسؤولًا عن السجناء الآخرين. وبهذه الصفة، ترك المهرطق سيئ السمعة جون فريثJohn Frith يخرج من سجن البرج يوم الإفراج عنه، وسمح للسجناء البروتستانتيين بزيارة توماس بيلني Thomas Bilney سيئ السمعة. بعد عقد من الزمان، حثّه السير نيكولاس كارو Nicholas Carew الذي حصل على منصب سيد الحصان، على التحول إلى الإيمان البروتستانتي، وأقنعه بأن يشجب، من منصة الإعدام التي قُطع عليها رأسه، بـ «الإيمان الخرافي» الذي كان لا يزال يعيش فيه[30].

نتيجة نقاط الضعف المتأصلة هذه، كان السجناء في إنكلترا الحديثة المبكرة في كثير من الأحيان قادرين على الكتابة ونشر أعمالهم، ما قد يبدو للعيون الحديثة أنه حرية مذهلة. خلال فترة حكم ماري، على سبيل المثال، نسخ السجناء البروتستانت كتابات السجناء البروتستانت الآخرين. ثم هُرّبت هذه الأعمال من السجن لتوزيعها على إخوانهم في الدين في جميع أنحاء المملكة. تضمّنت شبكة النسخ هذه عدة سجون. في كانون الثاني/ يناير 1555، أرسل نيكولاس ريدلي Nicholas Ridley، المسجون في أوكسفورد Oxford، رسالة كتبها إلى جون هوبر John Hooper، المسجون في سجن فليت، إلى جون برادفورد John Bradford، المسجون في سجن بنش الملك King's Bench، يطلب من

(28) William Downton, the servant of the imprisoned bishop John Hooper, was himself imprisoned for smuggling his master's writings out of prison; John Foxe, The Actes and Monuments of these Later and Perillous Dayes (London, 1563), 1055.

(29) Thomas S. Freeman, "Publish and Perish: The Scribal Culture of the Marian Martyrs," in The Uses of Script and Print, 1300–1700 (Cambridge, 2004), 237–38; and Peter Lake and Michael Questier, "Prisons, Priests, and People," in England's Long Reformation, 1500–1800 (London, 1998), 203–4.

(30) British Library, Add. MS. 421, fol. 113r; Thomas More, The Apology, ed. J. B. Trapp, vol. 9, The Yale Edition of the Complete Works of St. Thomas More (New Haven, Conn., 1979), 126–27; Narratives of the Days of the Reformation, ed. J. G. Nichols, Camden Society, o.s., 77 (London, 1859), 27; Edward Hall, Chronicle, ed. Henry Ellis (London, 1809), 827; and Original Letters Relative to the English Refor- mation, ed. Henry Robinson, Parker Society, 2 vols. (Cambridge, 1846–47), 2:625.

برادفورد Bradford نسخها قبل نقلها إلى هوبر Hooper[31]. كانت السلطات مهتمة بالتأكيد بمنع بعض السجناء من الكتابة، لكن سجناء نظام السجون الخاص بهم، لم يتمكنوا في كثير من الأحيان من الخضوع لإرادة السلطات. على سبيل المثال، أمر المجلس القضائي الخاص في عهد إدوارد السادس Edward VI بأن يُحتجز ستيفن غاردينر Stephen Gardiner في سجن البرج من دون كتب أو مخطوطات أو ورق أو قلم أو حبر؛ ومع ذلك، كتب خلال هذه الفترة عملين رئيسَين في علم اللاهوت، أحدهما باللغة الإنكليزية والآخر باللاتينية. كان العمل الثاني أكثر من ثمانمئة صفحة. طُبع كلا العملين بينما كان غاردينر Gardiner حبيسًا في سجن البرج، ما أثار غضب السلطات العاجزة[32].

إن كمية ونطاق الأعمال التي كتبها سجناء تيودور وستيوارت Tudor and Stuart كثيفة جدًا إلى درجة أن تعلن مولي موراي Molly Murray بشكل استفزازي، في مقالتها في هذه المجموعة: أن «السجن الحديث المبكر كان موقعًا للثقافة، يجب النظر فيه مع المحكمة والجامعة، على أنه مكان مهم للإنتاج النصي والأدبي». ومن المثير للاهتمام، أن جون فوكس John Foxe، المختص في علم الشهداء، أشار إلى نقطة غير متشابهة، حيث ادعى أنه بعد اعتقال البروتستانت في عهد ماري، «أصبحت جميع السجون تقريبًا مدارس وكنائس مسيحية صحيحة، لذا لم تكن هناك راحة أكبر للقلوب المسيحية من القدوم إلى السجون، لمشاهدة أحاديثهم الفاضلة، والاستماع إلى صلواتهم، وخطبهم، وأعظم المواعظ والاستشارات الإلهية»[33]. حتى يحصلوا على إرشادات دينية[34].

ومع ذلك، فإن صورة السجون الحديثة المبكرة كمواقع ثقافية أو تعليمية يمكن أن تكون مثالية جدًا من غير ريب. من المسلّم به أنه كانت هناك جوانب من السجن ربما حثّت على الكتابة: وقت شاغر وفير، والدافع عن استحقاق الفرد أو تفانيه في خدمة قضيته أو معتقداته، وفي بعض الحالات، دائرة من زملائه المؤمنين أو رفاقه السياسيين لتقديم التشجيع. ومع ذلك، كانت هناك أيضًا عقبات هائلة بل وخطِرة. كان أبسطها التهديد القوي للصحة الذي يشكله الحبس في السجون الحديثة المبكرة. كانت النظافة بدائية، في أحسن الأحوال، حتى في القصور الحديثة المبكرة؛ كان الوضع في السجون مروعًا حقًا. وصف أحد المعاصرين سجن وود ستريت كاونتر Wood Street Counter، وهو سجن في لندن، بأنه «أصبح مقرفًا جدًا إلى درجة أن لا أحد (بحسن نيته) سيحشر أنفه في أي من القضبان. وبالأحرى لن يقترب منها أكثر من مسافة ميل تقريبًا[35]. «كانت الرائحة في السجون ضارةً جدًا إلى حدّ أنه أصبح من المعتاد تهوية السجون قبل عقد جلسات المحكمة، ورشّ الخل في قاعات المحاكم، حتى لو كان ذلك فقط لمنع إصابة القضاة والمحلفين بالمرض في أثناء المحاكمات[36].

زعم التماس كَتَبه سجناء في سجن بنش الملك King's Bench عام 1579 أن ما يقرب من مئة سجين ماتوا هناك بسبب الحمّى في السنوات الست السابقة. ولم تتحسن الأحوال بعد قرن ونصف

(31) Freeman, "Publish and Perish," 241–43.

(32) Muller, Stephen Gardiner, 202, 204, and 214.

(33) John Foxe, Acts and Monuments of Matters Most Speciall in the Church (London, 1583), 1521

(34) Lake and Questier, "Prisons, Priests, and People," 201.

(35) Robert Speed?, The Counter Scuffle (London, 1635), sig. E1r

(36) Christopher Harding, Bill Hines, Richard Ireland, and Philip Rawlings, Imprisonment in England and Wales: A Concise History (Beckenham, U.K., 1985), 95.

القرن؛ ذكر تقرير برلماني عن سجن مارشالسي Marshalsea أنه خلال شتاء 1728–1729، مات من ثمانية إلى عشرة سجناء كل يوم بسبب الجوع أو المرض[37]. تعرض الأثرياء والنخب لخطر مماثل تقريبًا، بسبب المرض إن لم يكن سوء التغذية، مثل السجناء الآخرين. تمتّع إدوارد أندرهيل Edward Underhill، وهو رجل متقاعد أُرسِلَ إلى سجن نيوجيت Newgate عام 1554، بميزتين كبيرتين مقارنة بالسجناء الآخرين: لقد حصل على منحة أسبوعية قدرها عشرين شلنًا من اللورد فرانسيس راسل Francis Russell طوال فترة سجنه وتمتع بمحاباة مدير السجن. ومع ذلك، في غضون أسبوعين، وقع فريسة «ملاريا شديدة جدًا». وعلى الرغم من زيارات الطبيب والرعاية المستمرة من زوجته، تضاعف مرضه إلى درجة أنه أُفرج عنه بضمانات. بحلول هذا الوقت، لم يكن أندرهيل Underhill قادرًا على المشي وكان لا بد من حمله على درج سجن نيوجيت ونقله إلى المنزل على نقالة. وكان هذا بعد شهر واحد فقط داخل أسوار السجن[38].

بصرف النظر عن الاحتمال الحقيقي جدًا بأن السجناء الذين يرغبون في الكتابة لن يعيشوا ببساطة، كانت هناك أيضًا صعوبة في الحصول على مواد الكتابة اللازمة. شكّل الحصول على هذه المواد تحديًا في بعض السجون أو لبعض السجناء. كان يمكن ارتجال بدائل للأقلام والحبر، لكن العثور على تجهيزات ورقية كان يمثل مشكلةً أكبر. كتب نيكولاس ريدلي Nicholas Ridley ردودًا في الهوامش والمساحات الفارغة للرسائل المرسَلة إليه؛ استخدم جون جيرارد John Gerard غلاف الورق من الهدايا المرسَلة إليه. وفي مناسبات أخرى، أدى نقص الورق ببساطة إلى منع المساجين من الكتابة[39].

في أوقات أخرى، كان يمكن الحصول على المواد بلا صعوبة كبيرة. وهذا يوكّد نقطة يجب التركيز عليها في أي مناقشة تتعلق بالسجون الحديثة المبكرة: تتفاوت متباينة بشكل كبير. (من المثير للاهتمام مقارنة أنظمة السجون المتساهلة نسبيًا التي وصفتها مولي موراي Molly Murray هنا، ومراقبة السجناء الصارمة الموضحة في مقالة روبين آدامز Robyn Adams). في بعض الحالات، كانت السلطات قلقة بما يكفي بشأن كتابات السجين لبذل جهد حقيقي لقمعها. فُتِّشَت الزنازين، والسجناء في بعض الأحيان بحثًا عن كتابات أو أوراق مهرّبة وقلم وحبر[40]. كانت السلطات في بعض الأحيان يقظة بما يكفي للقبض على أولئك الذين يحاولون تهريب كتابات من السجن[41]. والأكثر غرابةً، أن الرسائل المكتوبة في السجن كانت عرضة دائمًا بشكل خاص للتنصت، كما اكتشف المشاركون في مؤامرة بابينجتون Babington في النهاية[42]. شرح جون جيرارد John Gerard

(37) Ibid., 93–94.

(38) Narratives of the Days of Reformation, 145–54.

(39) For examples, see Freeman, “Publish and Perish,” 243–44; and John Gerard, The Autobiography of an Elizabethan, trans. Philip Caraman (London, 1951), 117–18.

(40) For examples of such tactics, and their frequent success, see Certain Most Godly, Fruitful and Comfortable Letters of Such True Saints and Holy Martyres, ed. Henry Bull (London, 1564), 195–96; and Foxe, Actes and Monuments (1563), 1056, 1191, and 1419

(41) Apart from the case of Hooper’s servant, William Downton, which has already been men- tioned, Nicholas Ridley’s brother-in-law George Shipside was also apprehended trying to convey the bishop’s writings out of prison (Bull, Certain Most Godly . . . Letters, 54).

(42) For other examples of prison letters being intercepted by the authorities, see Foxe, Actes and Monuments (1563), 1427–28, 1444–45, 1459, 1631, and 1823–24; also see Robyn Adams’s essay in this volume.

لأحد مراسليه أنه كتب بعصير البرتقال -الذي يمكن قراءته عند تعريضه للحرارة فقط- بغية أن يعرف المراسل ما إذا اعتُرِضَت الرسالة وقُرِئَت. كان القمع في أَوجِهِ في كثير من الأحيان، لكن لا يمكن أن يستمر على المدى الطويل لأن هذه التدابير تتعارض مباشرة مع نظام الرسوم والرشاوى الضروري لإدارة السجون.

كانت السجون مواقع إنتاج ثقافي، لكن من الإنصاف التساؤل عما إذا كان هذا بسبب، أو على الرغم من، طبيعة السجون الحديثة المبكرة. هل قدمت السجون فرصًا معينة شجعت على الكتابة أو سهلتها؟ أم أن وفرة الكتابات مجرد نتيجة جماعية لتصميم وإبداع فرادى السجناء؟ وهل كانت السجون الحديثة المبكرة مواقع ثقافية لمجرد أن النسبة الأكبر -مقارنة بالسجون الحديثة- من النخب المتعلمة المسجونة فيها؟ أو هل أدت عوامل أخرى دورًا، مثل تقاليد الكتابة في السجون (الذي استكشفته ريفكا زيم Rivkah Zim من خلال مساهمتها في هذه المجموعة)؟ هل كان انحراف وفساد السجّانين الحديثين الأوائل عوامل أساس لتحويل السجون إلى مواقع ثقافية؟

إن تحليل السجون الحديثة المبكّرة كمواقع ثقافية مطلوبة وبدأت في هذا المجلد، أمر مرغوب جدًا من عدد من وجهات النظر التأديبية. على المستوى الأكثر وضوحًا، مقدار الكتابة في السجون في تيودور وستيوارت Tudor and Stuart في إنكلترا، والإشارات إلى السجون والسجناء التي انتشرت في أدبيات تلك الفترة، تجعل الإلمام الأساس على الأقل بممارسات السجون وإنتاجها ضروريًا لفهم الثقافة الحديثة المبكرة. توجد كتابات السجون الإنكليزية الحديثة المبكرة بعدد وجودة كافيين، لا لتكون جديرة بالاهتمام كنوع أدبي ولكن لتكون أيضًا دليلًا قيّمًا للتحقيق في تخصصات أخرى. على الرغم من أن كتّاب السجون لا يمثلون الأغلبية العظمى ممن عانوا في السجون الحديثة المبكرة (من حيث أنهم كانوا عمومًا -ولكن ليس دائمًا- محتجزين في أوضاع أفضل)، إلا أن كتاباتهم سلطت ضوءًا كبيرًا على نظريات وممارسات الجريمة والعقاب في سجون تيودور وستيوارت الإنكليزية[43].

وعلى الرغم من أن هذا وحده من شأنه أن يجعل كتابات السجون لا تقدَّر بثمن بالنسبة إلى المؤرخين، إلا أن لها مدلولات أوسع، لأن تجربة السجن أثرت بشكل عميق في الحياة الدينية الإنكليزية الحديثة المبكرة. عانى الكاثوليك والبروتستانت والإنجليكان والكويكر والمعمدانيون -جميع الجماعات الدينية الإنكليزية تقريبًا- في الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، سجن قادتهم والعديد من أتباعهم. احتفظت كل مجموعة دينية بكتابات السجن وروايات عن سَجن أعضائها في أدب الشهداء. بالنسبة إلى الكاثوليك والمنشقين، ألّف السجن والتهديد المستمرّ به مجتمعاتهم. لا يمكننا فهم الإصلاح الإنكليزي تمامًا، من دون توسيع معرفتنا بطبيعة السجون وتجربة السجن في إنكلترا الحديثة المبكرة.

(43) It should be remembered that religious offenders, in particular, could be appallingly treated.

Hull prison, for example, had a notorious reputation for its miserable conditions. A 1581 account main- tains that the numerous Catholic prisoners held there received a penny a week for food. During Lent, they subsisted on bread, ale, and small quantities of salted fish. More seriously, they had no access to fresh water and had to drink and bathe with water from the sewers and the drains. See Richard Rex, “Thomas Vavasour M.D.,” Recusant History 20 (1991): 444. Other religious prisoners—for example, Marian Protestants and Quakers—had their own horror stories.

أود أن أشكر كاثلين لينش Kathleen Lynch على المحادثات التي ساعدت في توضيح بعض الأفكار الواردة في هذه المقدمة وإلى بيل شيرمان Bill Sherman وروث آهنيرت Ruth Ahnert على تعليقاتهما القيمة على المسودات السابقة.

***

قائمة المراجع

- Christopher Harding, Bill Hines, Richard Ireland, and Philip Rawlings, Imprisonment in England and Wales: A Concise History (Beckenham, U.K., 1985), 95.
- Craig Muldrew, The Economy of Obligation: The Culture of Credit and Social Relations in Early Modern England (Basingstoke, U.K., 1998).
- J. A. Muller, Stephen Gardiner and the Tudor Reaction (New York, 1926).
- J. A. Sharpe, Crime in Early Modern England, 1550–1750, 2nd ed. (London, 1999), 251–52.
- John Foxe, Acts and Monuments of Matters Most Speciall in the Church (London, 1583), 1521
- John R. Knott, Discourses of Martyrdom in Early Modern England (Cambridge, 1993).
- Laura Gowing, Domestic Dangers: Women, Words, and Sex in Early Modern London (Oxford, 1996).
- Malcolm Gaskill, Crime and Mentalities in Early Modern England (Cambridge, 2000).
- Margo Todd, Christian Humanism and the Social Order (Cambridge, 1987), 118–47.
- Peter Lake and Michael Questier, “Prisons, Priests, and People,” in England’s Long Reformation, 1500–1800 (London, 1998).
- Robert Speed, The Counter Scuffle (London, 1635).
- The Oeconomy of the Fleete, ed. Augustus Jessop, Camden Society, n.s., 25 (London, 1879).
- Thomas Dekker, Villanies Discovered by Lanthorne and Candle-Light (London, 1616).
- Thomas S. Freeman, “Publish and Perish: The Scribal Culture of the Marian Martyrs,” in The Uses of Script and Print, 1300–1700 (Cambridge, 2004)

المشاركون في هذا العدد

الزهراء سهيل الطشم
إبراهيم الجبين
إبراهيم صموئيل
آندي فليمستروم
إيمان صادق
أحمد قعبور
أمل حويجة
أنجيل الشاعر
آرام
بسام يوسف
جمال بوعجاجة
حاتم التليلي محمودي
حازم نهار
حسام الدين درويش
حسيبة عبدالرحمن
خطيب بدلة
راتب شعبو

رغدة الخطيب
ريبيكا شريعة طالقاني
سالم عوض الترابين
سميح شقير
سمير ساسّي
سمير قنوع
سهيل الجباعي
سوزان علي
شفيق صنّوفي
عبد الرزاق دحنون
علاء الرشيدي
علي الكردي
غسان الجباعي
فاتن أبو فارس
فاتن شمس
فادي كحلوس
فاطمة علي عبُّود

فراس سعد
فرج بيرقدار
فواز حداد
كومان حسين
محمد إبراهيم همَّد
محمد بوعيطة
محمود أبو حامد
مصطفى خليفة
منذر بدر حلّوم
ميسون شقير
نادية بلكريش
نبيل سليمان
نجاح البقاعي
هشام عيد
وجدان ناصيف
وسيم حسان
ياسر خنجر

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

السعر 15 دولارًا
2757-8909